www.tafsir.net

توبي ليستر
Toby lester

ما القرآن ؟

ترجمة : حسام صبري

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

ما القرآن؟[1]

مقدمة[2]:

يعد توبي ليستر أحد الكُتّاب الأمريكيين الذين تحظى كتاباتهم باحترامٍ وتقديرٍ كبيرٍ؛ نظرًا لاشتهارها بالدقّة وحسن التناول، وفي مقالته هذه -التي بين أيدينا- حاول ليستر معالجة موضوع الاتجاه التنقيحي ومقاربته، حيث اجتهد في تلخيص أبرز أفكار وأهم مرتكزات هذا الاتجاه واستعراض أهم رواده وأعلامه بصورة موسعة ومركزة.

وقد نُشِرت هذه المقالة في مجلة «ذا أتلانتيك» الأمريكية عام ١٩٩٩م، ومن ثَمّ أضحت مقالة شائعة الحضور والتناول من قِبَلِ كثير من القرّاء سواء غربًا أو حتى في الواقع المعرفي العربي في موضوع الاتجاه التنقيحي.

كما أن هذا المقال -وبحكم كونه مقالًا صحفيًّا- استطاع التخفّف من ثِقَلِ الكتابة الأكاديمية وضوابطها التحريرية الصارمة، فتخفّف من ضغط المصطلحات العلمية الدقيقة، ومن ضرورة إدراج المراجع والمصادر العلميّة؛

(١) كاتب هذا المقال هو توبي ليستر (١٩٦٤م): صحفي أمريكي، ومؤلف، يحظى باهتمام كبير؛ لتميّز كتاباته، فضلًا عن أنه ولد في عائلة اشتهرت بالكتابة، تخرج في جامعة فرجينيا عام ١٩٨٧م، وعمل كضابط لشئون اللاجئين لدى الأمم المتحدة، وساعد في برامج في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، وعمل بفيلق السلام في اليمن، في الفترة من ١٩٩٥م إلى ٢٠٠٥م، عمل في مجلة أمريكان ذي أتلانتيك كمدير للتحرير، وأسهم بالعديد من المقالات في المجلات الأخرى.

(٢) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام وكتابة الحواشي والتعليقات الواردة في نص الترجمة، مسئولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية.

ما مكنه من التلخيص والإيضاح والتعبير بلغة سهلة ويسيرة الهضم من قِبَلِ شرائح عديدة، وهو ما أدى لاكتسابه شهرة ورواجًا واسعين لدى الكثير من القراء الراغبين في التعرف على هذا الاتجاه ومعرفة أهم أفكاره وأطروحاته.

وتأتي أهمية ترجمة مقالة ليستر ليس فقط لشهرتها في استعراض موضوع الاتجاه التنقيحي ورموزه بصورة شمولية وكثرة الرجوع إليها في هذا الصدد، ولكن لشهرتها في نصرة الاتجاه التنقيحي ذاته، فمقالة ليستر تعد واحدة من أهم المقالات التي قامت بالدعاية والترويج لـ«الاتجاه التنقيحي»، فقد تناول ليستر الاتجاه التنقيحي بنبرة كتابية فيها دعاية ظاهرة لهذا الاتجاه ودعم لأفكاره وأطروحاته، حيث نحا لعرض حدث مخطوطات صنعاء مرددًا من خلاله لذات النتائج التي يذكرها التنقيحيون ومؤكدًا على أن هذه المخطوطات أسفرت عن نتائج قاطعة توافق أطروحات الاتجاه التنقيحي حول تاريخ القرآن الكريم.

كما انطوت معالجته للاتجاه التنقيحي على توقّع -أو ربما تمنّ- بانتصار وغلبة هذا التوجّه،سواء على ساحة الدرس الاستشراقي أو على مستوى وعي المسلمين بكتابهم وتاريخهم، فقد ركّز ليستر على كتابات النهضويين العرب والحداثيين المعاصرين باعتبارها تمثّل -بمعنى ما- «تنقيحية العالم الإسلامي»، حيث يقصد من خلال ذلك التأكيد على أنها محاولات تسير في نفس طريق الاتجاه التنقيحي من القيام بمراجعة نقديّة جذرية للتاريخ الإسلامي قد تنتهي -كما يتمنى ليستر- لما انتهى إليه التنقيحيون من التحرّر من هذا الموروث الطويل وإعادة بناء التاريخ الإسلامي في وعي المسلمين بتاريخهم بصورة توافق أكثر التوجهات جذرية في تاريخ الاستشراق.

ومن هاهنا فإن ترجمة هذه المقالة تعدّ عملًا مهمًّا جدًّا في استعراضنا للاتجاه التنقيحي في قسم «ترجمات»؛ نظرًا لما يمثله من حلقة مهمّة تضفي تكاملية على طرحنا للكتابات الغربية حول هذا الاتجاه، بحيث نكون قد أتحنا للقراء الكرام خارطة للكتابات وللنتاج الغربي حول هذا الاتجاه بكلّ ما يحمله من تنوعات وأطياف، وقدّمنا صورة دقيقة قدر الطاقة لهذا النتاج بكلّ ما فيه من توجهات ومسارات، سواء ناقدة أو داعمة للاتجاه التنقيحي ولأفكاره.

كما أن نشر هذا المقال يسهم في تحقق أحد الأهداف الأصيلة لـ«قسم الترجمات» أيضًا على موقع «مركز تفسير» في أن يكون نافذة يطلُّ من خلالها الباحثُ العربي المهتمّ بالدراسات القرآنية على أهمّ ما يُكتب ويُتداوَل من نقاشات حول القرآن الكريم ودراساته في الدوائر الغربية، لا فقط الدوائر الأكاديمية، بل وكذلك الصحفية التي لا تقلّ أهمية أحيانًا من حيث حضورها وتأثيرها وتعبيرها عن واقع القراءة الغربية للقرآن، وهذا في إطار الرغبة في تحقيق اطلاع واعٍ، ومثاقفة مؤصلة لهذا الواقع بمختلف مساحاته ومستوياته[1].

❁ ❁ ❁

(١) لمطالعة سياسات وأهداف «قسم ترجمات» على «موقع تفسير» يمكن زيارة الرابط التالي:
https://bit.ly/2MIySqG

نص المقالة

خلال عملية ترميم الجامع الكبير في صنعاء، باليمن عام ١٩٧٢م، عَثَرَ العمالُ أثناء عملهم في العُلِّيَّة -الموجودة بين السقف الداخلي والخارجي للمسجد- على مدفن مهم، رغم أنَّهم لم يدركوا قيمته آنذاك، ولا شك أنهم معذورون بجهلهم؛ إذ لا تضمُّ المساجد في العادة أي مقابر، كما أنَّ هذا الموقع لا يحتوي على شواهد القبور، ولا رفات بشرية، ولا قطع الحُلي التذكارية، ولم تحتوِ هذه المقبرة إلا على ركام من مخطوطات ورقية عتيقة ورقوق قديمة وكتب بالية وصفحات مكتوبة بالعربية، أضرَّ بها تتابع هطول الأمطار والرطوبة على مدار قرون طويلة فالتصقت ببعضها، وتركت الفئران والحشرات بصمتها عليها. وحرصًا من العمال على إتمام عملهم جمعوا هذه المخطوطات، وضغطوها في حوالي عشرين جوالًا، وأحكموا قفلها، ثم وضعوها جانبًا على درج إحدى مآذن المسجد، وكان من الوارد أن يطويها النسيان مرة أخرى لولا وجود القاضي إسماعيل الأكوع -رئيس هيئة الآثار اليمنية آنذاك- والذي أدرك الأهمية المحتملة لهذا الكشف.

سعى الأكوع للحصول على مساعدة دوليّة لفحص هذه المخطوطات وصيانتها، وفي عام ١٩٧٩م، استطاع أن يُثير اهتمام باحث ألماني زائر، استطاع بدوره أن يُقنعَ الحكومة الألمانية بتنظيم مشروع الترميم وتمويله، ولم يكد المشروع يبدأ، حتى اتضح أنَّ الكنز كان مثالًا رائعًا لما يُطلق عليه«قبر المخطوطات الورقية»،وهو في هذه الحالة مأوى لعشرات الآلاف من القصاصات المتفرقة، لما يقرب من ألف مخطوط من مخطوطات القرآن

المختلفة. جديرٌ بالذكر أنَّ بعض الأوساط الإسلامية المتدينة تحظر تداول النسخ البالية من القرآن، من هنا ظهرت فكرة دفنها في قبر، مما يَكفلُ الحفاظ على حرمة النصوص، ويضمن الاقتصار على تداول النسخ الكاملة التي لا تشوبها شائبة.

ويبدو أنَّ بعض صفحات المخطوطات في الكنز اليمني تعود إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين، أو إلى القرنين الأول والثاني الهجريين؛ مما يجعلها قصاصات لأقدم نسخة موجودة من القرآن. والأهمُّ أنَّ بعض هذه القصاصات كشفت عن وجود اختلافات بسيطة، لكنها مثيرة للاهتمام، عن النصِّ القرآني المشهور. واختلافات كهذه، وإن لم تكن مفاجئة لمؤرخي النصّ، إلا أنَّها تناقض بشكلٍ مُثير للقلق الاعتقاد السنيّ بأنَّ القرآن بصورته التي عليها اليوم هو ببساطة كلمة الله الكاملة والخالدة وغير المحرفة والمنزلة من الله تعالى[1].

(١) نحن هنا أمام جسارة كبيرة جدًّا من ليستر تفتقد لأدنى مسوغاتها العلمية والبحثية؛ وذلك لأمور؛ منها: أولًا: أنَّ مخطوطات مصاحف صنعاء لم تتح مادتها بعدُ لنعرف ما إذا كان هناك مثل هذه الاختلافات أم لا؟ وهو ما سيقرره ليستر ذاته بعد ذلك بقليل، حيث سيبيّن أنَّه لم يتح سوى لعالِمين فقط مطالعة هذه المخطوطات، وأنهما لما ينشرا عن محتوياتها شيئًا، وبالتالي فمن أين أتى ليستر بنتيجته القاطعة هذه؟! ثانيًا: فكرة وجود تطوّر واختلافات في النصّ القرآني الحديث عن القديم فكرة باهتة جدًّا كشف عن خطئها بعض المستشرقين أنفسهم، ممن لهم اشتغال بمخطوطات المصاحف القديمة كفرنسوا ديروش مثلًا، والذي أثبت تطابق النصّ القرآني في قديمه وجديده وعدم وجود أية اختلافات يمكن التعويل عليها، وذلك من خلال مقارناته العديدة بين مخطوطات المصاحف؛ ومن ثم فالقول بوجود تطوّر واختلاف في نصوص القرآن قول خاطئ قولًا واحدًا، ودعوى لا دليل عليها البتة، وغاية الأمر هو وجود بعض الفروق في الأمور الفنية التي تتعلق بالزخارف، وما أضيف لرسم المصحف من علامات كالنقط وغيرها...إلخ، من الأمور التكميلية التي أضيفت للنصّ لاحقًا بغرض تيسير قراءة القرآن لا أكثر، والتي لا يمكن تبعًا لها القول بوجود اختلافات بين نسخ القرآن القديمة وما بعدها كما هو بيّن، كما أكّد هذا الأمر أيضًا ظهور بعض مخطوطات أكثر قدمًا من مخطوطات صنعاء ذاتها كمخطوطة برمنجهام عام ٢٠١٥م مثلًا، والتي تعود إلى وقت ما بين (٥٦٨ و٦٤٥) -أي أنها معاصرة تمامًا لحياة النبي -صلى الله عليه وسلم- أو إثرها مباشرة- هذه النسخة لا تختلف عن النسخة الحالية للمصحف، =

لا شك أنّ السعي العلماني الرامي إلى إعادة تفسير القرآن بالاستناد بشكلٍ جزئي إلى دليلٍ نصيٍّ يزعج عموم المسلمين، كما تزعج محاولات إعادة تفسير الكتاب المقدّس وحياة يسوع كثيرًا من المسيحيين المحافظين، إلا أنَّ هناك علماء -من بينهم مسلمون- يرون في هذا السعي الذي يضعُ القرآن في سياق تاريخي وقودًا لتجديد إسلامي يعيدُ النظرَ في التراث، ويمضي قُدمًا في نهضته منطلقًا من ماضيه، وهذا النوع من التفكير، وإن كان لا يزال مقصورًا على النظر العلمي والبرهان، إلا أن عوامل قوته متوافرة، ويمكن أن يقودنا إلى تغيير اجتماعي كبيرٍ على نحو ما، يخبرنا به تاريخ النهضة والإصلاح. والقرآن فوق كلّ ذلك هو النصُّ ذو الصبغة الأيديولوجية الأكثر تأثيرًا في العالم.

النظر في القصاصات:

كان أوّل من قضى قدرًا كبيرًا من الوقت في فحص المخطوطات اليمنية في عام ١٩٨١م، هو جيرد ر. بوين (١٩٤٠م)[١]، وهو عالمٌ متخصص في الخط العربي ودراسة المخطوطات القرآنية في جامعة سارلاند، في ساربروكن، ألمانيا. وقد أكّد بوين -الذي أرسلته الحكومة الألمانية؛ لتنظيم مشروع الترميم والإشراف عليه-

= كما أكد ديفيد توماس من جامعة برمنجهام. ثالثًا: هذا الموقف ذاته الذي يقوم عليه القول بوجود تطوّر كبير في نص المصحف يعتوره إشكال منهجي بيّن، حيث إنه يقوم على التشكيك مبدئيًا في المدونات التاريخية الإسلامية، وفي الرواية الإسلامية عن القرآن، وعلى عدم اعتماد أية أدلة سوى الأدلة الحفرية فحسب، ورغم أن هذه الأدلة نفسها تثبت عدم دقة هذه النتائج التي تروج في مثل مقالة ليستر عن تطوّر النص القرآني ووجود اختلاف كبير بين المخطوطات القديمة والنسخة الحالية، إلا أنَّ الاقتصار على هذه الأدلة وإقصاء المصادر الإسلامية لا يمكن عدّه سوى نوعٍ من التعسف المنهجي غير المبرر.

(١) جيرد ر. بوين (١٩٤٠م) مستشرق ألماني من جامعة سارلاند، مختص بالأساس بالخط العربي وتاريخ ضبط الكتابة القرآنية، عمل رئيسًا لمشروع ترميم مخطوطات صنعاء، له كتاب مهم بالاشتراك مع مستشرق ألماني آخر هو كارل هاينز أوليج، بعنوان «البدايات المبهة؛ بحث جديد حول أصل الإسلام وتاريخه المبكر»، وقد ترجمنا عرضًا للكتاب، كتبه المستشرق البريطاني جيرالد هوتنج، وهو منشور ضمن الملف الأول على قسم الترجمات «ملف الاتجاه التنقيحي»، على هذا الرابط: https://bit.ly/2O3Pf0O.

على القيمة الأثرية وقِدَم بعض أجزاء المخطوطات، كما كشفَ فحصه الأوليّ عن ترتيب مختلف للآيات، فضلًا عن اختلافات نصيّة طفيفة، وأساليب نادرة من الإملاء والزخرفة، والمدهش أنَّ بعض المخطوطات مكتوبة بالخط الحجازي النادر، وهو أول خط كُتِبَ به القرآن؛ لتكون بذلك من أقدم المخطوطات القرآنية الموجودة، كما وجد قطعًا من الرق الممسوح كُتب عليها للمرة الثانية بشكل واضح جدًّا، وبدأ بوين يستشعرُ من خلال النظر في مخطوطات القرآن اليمنية أنَّ ثمّة تطورات لحقت بالنصِّ، فكان نصًّا متجددًا لم ينزل كلّه مرة واحدة على النبي محمد في القرن السابع الميلادي.

في أوائل الثمانينيات تمَّ الانتهاء من صيانة أكثر من (١٥) ألف ورقة من مخطوطات القرآن اليمنية، منها ما هو رقّ جلدي قرآني، وتمَّ فرزها وتسويتها من طيّها وتنظيفها بشق الأنفس، وجُمعت القصاصات القرآنية وصُنفت وعولجت، وانتهوا منها وهي الآن -كما يقول بوين- محفوظة لآلاف من السنين الأخرى في بيت المخطوطات اليمني، في انتظار فحصٍ مفصّل ودقيق، وهذا أمرٌ يبدو أنَّ السلطات اليمنية مترددة في السماح به؛ حيث يرى بوين أنهم يريدون مثلنا -وإن اختلفت أسبابنا- إبقاء هذا الكنز النفيس بعيدًا عن الأنظار، حتى إنهم لا يريدون أن يلفتوا الانتباه إلى أنَّ هناك بعثة ألمانية وغيرهم ممن يعملون على هذه المخطوطات القرآنية، ولا يريدون أن يُعلنوا عن أي عمل تمَّ على الإطلاق؛ لأن المسلمين يرون أنّ كلَّ ما يتعلق بتاريخ القرآن قد أُميط عنه اللثام منذ ألف عام، ولم يعد هناك مجال لمزيد كلام.

حتى وقتنا الحالي لم يُسمح إلا لعالمين اثنين فقط بالوصول إلى الرقوق والقصاصات القرآنية اليمنية: بوين، وزميله غراف فون بوتمر، وهو مؤرخ الفنّ الإسلامي بجامعة سارلاند، ولم ينشر بوين وفون بوتمر سوى عدد قليل من المقالات القصيرة في منشورات علمية حول ما اكتشفوه في القصاصات

القرآنية اليمنية. وجزء من سبب إحجامهما عن النشر: أنهما ظلّا لوقت قريب مشغولين بترتيب وتصنيف القصاصات القرآنية، وصرفًا اهتمامهما لهذا الأمر بدلًا من إجراء الفحص المنهجي على الرقوق والقصاصات القرآنية، هذا علاوة على شعورهما بأنَّ السلطات اليمنية إذا ما أدركت الآثار المحتملة لهذا الاكتشاف قد ترفضُ نتائجه لدرجة ألا تسمح لهما من التمكّن من مواصلة الفحوصات المنهجية، إلا أن فون بوتمر في عام ١٩٩٧م انتهى من التقاط أكثر من ٣٥ ألف صورة مصغّرة «ميكروفيلم» للرقوق والقصاصات القرآنية، وجلبَ معه الصور مؤخرًا إلى ألمانيا، وهذا يعني أن فون بوتمر وبوين، وغيرهم من العلماء ستُتاح لهم فرصة التدقيق في النصوص ونشر نتائجها بحريّة؛ وهو أمرٌ يتطلع إليه بوين بشدة. يقول بوين: «يؤمن كثير من المسلمين بأنّ كلّ ما بين دفتي المصحف هو القرآن المجرد، كلمة الله بدون أي تغيير»، وأضاف: «ويحبون أن يقتبسوا من النصوص ما يؤيد أن لـ«الكتاب المقدس» تاريخ، ولم ينزل مباشرة من السماء، لكن يبقى القرآن حصينًا بمنأى عن هذا الأمر، والطريقةُ الوحيدة لاختراق هذا الجدار هو إثبات أن القرآن له تاريخ أيضًا، وسوف تساعدنا قصاصات صنعاء في هذه المهمّة».

بوين ليس وحده في حماسة، فهناك أندرو ريبين[١]، أستاذ الدراسات الدينية في جامعة كالغاري، والذي يُشار إليه بالبنان في حقل الدراسات القرآنية اليوم، يقول ريبين: «إنّ القراءات المختلفة التي وردت في مخطوطات اليمن، وترتيب الآيات أمور في غاية الأهمية، ويتفق الجميع على ذلك، وتؤكد هذه المخطوطات أنَّ

(١) أندرو ريبين، هو باحث كندي من أصل بريطاني، ولد في لندن ١٩٥٠م، واهتمامه الرئيس يتعلق بدراسة الإسلام المبكر، ودراسة تفسير القرآن في العصور الكلاسيكية، له عدد من المؤلفات التي قام بتأليفها أو المشاركة في إعدادها، مثل: دليل إلى الإسلام، مع ديفيد إيدي ليونارد ودونالد ليتل ريتشارد، كما حرّر كتابًا بعنوان «مقاربات في تاريخ تفسير القرآن»، والذي صدر عن جامعة أكسفورد عام ١٩٨٨م. وقد عمل كباحث زميل في معهد الدراسات الإسماعيلية بلندن، منذ عام ٢٠١٣م، قبل وفاته في ٢٠١٦م.

التاريخ المبكّر للنصّ القرآني هو سؤال مفتوح أكثر مما يظنّ كثير من الناس؛ إذ النص أقلّ استقرارًا، وبالتالي أقلّ سلطة مما يتمُّ دومًا ادعاؤه»[1].

تنقيح كلام الله:

إذا أعملنا معايير المناهج المعاصرة المستخدمة في دراسة الكتاب المقدس؛ وجدنا أنَّ معظم الأسئلة التي يطرحها علماء مثل بوين وريبين متواضعة نوعًا ما، فبعيدًا عن السياق الإسلامي نجدُ الفرضيات التي ترى أنَّ للقرآن تاريخًا ويمكن تفسيره مجازيًّا لا تمثّل أمرًا ذا بال، ومع ذلك لا يمكن إغفال السياق الإسلامي والحساسيات الإسلامية.

يرى ستيفن همفريز (١٩٤٢)[2]، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة كاليفورنيا في سانتا باربرا أنَّ «وضع القرآن في سياق تاريخي سيؤدي إلى نزع الشرعيّة عن تجربة المجتمع الإسلامي التاريخية بأكملها، فالقرآن هو ميثاق المجتمع، والوثيقة التي أرست دعائم وجوده؛ بل ومن منظور مثالي، وإن اختلف الواقع الفعلي في بعض الأحيان، فإنَّ التاريخ الإسلامي هو في حقيقته سعي لتجسيد وصايا القرآن في حياة الإنسان، فإذا قلنا إن القرآن وثيقة تاريخية أضحى النضالُ الإسلامي كله، منذ أربعة عشر قرنًا لا معنى له على الإطلاق».

إنّ النظرة الإسلامية السُّنية للقرآن باعتباره كلمة الله التامّة المعجزة في الرسالة

(١) نلاحظ هاهنا ذات الترديد للنتائج غير المستندة لأية مقدمات، والتي مرّت بنا قبل -من القول بتطوّر نصّ القرآن واختلاف نسخه المعاصرة عن القديمة- ليس فقط من قِبَل توبي ليستر، وإنما أيضًا من غيره من المستشرقين كريبين الذي نقل عنه هاهنا؛ فبالرغم من عدم ظهور نتائج فحص مخطوطات صنعاء - كما قرّر ليستر ذاته- إلا أنَّ الحسم بالنتائج ظاهر في كلامهما، وهو أمرٌ يكشف عن وجود مسبقات يراد الوصول إليها أكثر من كونه بحثًا يسير تبعًا لمقدماته الطبيعية، وهو أمر ملحوظ في العديد من دراسات الاستشراق بوجه عام.

(٢) ستيفن همفريز: مؤرخ أمريكي متخصص في تاريخ جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، بروفيسور في جامعة كاليفورنيا، من مؤلفاته: التاريخ الإسلامي؛ إطار للتحقيق ١٩٨٨م.

واللغة والأسلوب والشكل والبيان، تشبه إلى حدٍّ بعيد مفهوم عصمة الكتاب المقدّس والوحي باللفظ والمعنى في المسيحية الأصولية، وهو مفهومٌ شائعٌ في العديد من الأماكن إلى يومنا هذا، وقد صاغ هذه الفكرة بتعبيرٍ كلاسيكي جون ويليام برغن (١٨١٣- ١٨٨٨)[١] منذ أكثر من قرن من الزمان.

«الكتاب المقدّس ليس سوى صوت الذي استوى على العرش! فكلّ سفر منه، وكلّ إصحاح منه، كلّ آية منه، بل كلّ كلمة منه، وكلّ مقطع... كلّ حرف منه، فهو كلمة القدوس!».

وليست هذه نظرة المسيحيين كافّة للكتاب المقدّس، ومع ذلك، ففي الواقع، كما تشيرُ موسوعة الإسلام (١٩٨١م): «إنَّ أقرب نظير في العقيدة المسيحية لدور القرآن في العقيدة الإسلامية هو المسيح ذاته»، فإذا كان المسيح كلمة الله التي تجسدت في لحمٍ ودمٍ، فإنَّ القرآن كلمة الله جعلت في النصّ، وأي تشكيك في القدسيّة أو السلطة هو هجوم صريح على الإسلام، كما في حالة سلمان رشدي المعروفة جيدًا.

توقع ردّ فعلٍ مضاد من المسلمين لم يقم حائلًا دون ظهور الدراسات التاريخية النقديّة للقرآن، فظهر في عام ١٩٩٨م كتاب حمل عنوان: «The Origins of the Kora» أو «أصول القرآن»، وحتى في أعقاب قضية سلمان رشدي (١٩٤٧م)[٢]،

(١) جون ويليام برغون (١٨١٣م - ١٨٨٨م): إنجليزي إنجيليكي، كان عميد كاتدرائية شيشستر في عام ١٨٧٦م، اشتهر بدفاعه العاطفي والمستميت ضد تاريخ سفر التكوين والكتاب المقدّس، وجذب الانتباه بخطبه القوية ضدّ البحوث والمقالات التي انتقدت الإلهام في الكتاب المقدس، ودافع ضد نتائج النقد النصي، وزاد من حدة انتقاده لمنهج تاريخ الكتاب المقدّس بشكلٍ عامٍّ، رفض دراسات تاريخ الكتاب المقدّس، وحسم الأمرَ بأنَّه ليس هناك من خيار؛ إما أن تؤمن بالكتابِ المقدس كلّه، أو تكفر به كلّه.

(٢) سلمان رشدي (١٩٤٧م-): كاتب وأديب إنجليزي من أصل هندي، له عدد من الروايات؛ أشهرها: «أطفال منتصف الليل» (١٩٨١م)، و«آيات شيطانية» (١٩٨٨م)، وقد أثارت هذه الأخيرة ردود فعل كبيرة بعد صدورها -وصلت إلى فتوى بقتله- لما انطوت عليه من محاكاة مجدفة للرموز الدينية الإسلامية.

استمر الأمر، ففي عام ١٩٩٦م كتب الباحث القرآني غونترلولينغ في مجلة «Higher Criticism» حول مدى التحريف الواسع الذي طالَ النصّ القرآني والتصور الإسلامي للأصول الإسلامية، وهو تحريفٌ يقرّهُ الباحثون الغربيون من المعنيين بالدراسات الإسلامية حتى وقتنا الحالي[١].

وفي عام ١٩٩٤م نشرت مجلة دراسات القدس في اللغة العربية والإسلام «Jerusalem Studies in Arabic and Islam» دراسة للباحث يهودا نيفو (١٩٣٢- ١٩٩٢)[٢]، من الجامعة العبرية في القدس، وذلك بعد وفاته، فصّل فيها النقوش الدينية التي كتبت في القرن السابع والثامن الميلاديين على الحجارة في صحراء النقب، والتي يرى نيفو أنها تثير مشاكل كبيرة فيما يخص التصوّر الإسلامي التقليدي بشأن تاريخ الإسلام، وفي نفس العام، وفي نفس المجلة،

(١) لا يخفى على القارئ أنَّ مثل هذه التعميمات التي يستخدمها ليستر «تحريف يقرّه الباحثون الغربيون» هي أسلوب صحفي بحت، لا علاقة له بأي كتابة علمية، فهذه الأخيرة وحدها تدرك الاختلافات الواسعة بين الباحثين الغربيين في مثل هذه القضايا، بل وفي مدخل وطرق مقاربة النصّ، ومدى تثمين المدخل التاريخي من الأساس، ولعلّ بعض المواد التي نشرنا هنا على قسم الترجمات ضمن ملف الاتجاه التنقيحي، توضح تمامًا كون ما يروجه ليستر على أساس أنه أمرٌ منتهٍ ومتفقٌ عليه، يشهد في الحقيقة اختلافات عدة، وليس محلّ إجماع وإقرار من سائر الباحثين كما يدعي، انظر مثلًا: محاضرة فيلد «تاريخ القرآن، لماذا لا نحرز تقدمًا؟»، وكذا مقالة لمبارد «تفكيك الاستعمار في الدراسات القرآنية»، و«ضبط الكتابة، حول بعض خصائص مصاحف الفترة الأموية» لفرنسوا ديروش، على الروابط الآتية: https://bit.ly/2ONv3xq - https://bit.ly/2QRDskS - https://bit.ly/2OJ5xJm.

(٢) يهودا دي نيفو (١٩٣٢-١٩٩٢م)، مستشرق يهودي، يعتبر من أكثر المتأثرين بأفكار التوجه التنقيحي في قراءة تاريخ الإسلام، وقد أولى اهتمامًا خاصًّا للشواهد الأثرية المادية مثل النقوش، واعتبرها دليلًا رئيسًا في كتابة التاريخ الإسلامي مفضلًا لها على المرويات التقليدية في حالة التعارض بينهما، اكتشف بعض النقوش في صحراء النقب، والتي تدلّ في رأيه على وجود جاهلية وثنية في هذه المنطقة بين القرنين السادس والسابع الميلادي تشبه تلك الجاهلية التي يتحدث عنها التقليد الإسلامي، تلك التي يضعها هذا التقليد في مكة على الرغم من عدم توفر أدلة أثرية على هذا، له عدد من الكتب، منها «النقوش العربية القديمة في النقب»، و«مفترق طرق الإسلام، أصول الدين العربي والدولة العربية».

نشرت باتريشيا كرون (١٩٤٥-٢٠١٥)[١]، مؤرخة متخصصة في تاريخ صدر الإسلام، وتعمل حاليًا في معهد الدراسات المتقدمة في برينستون بولاية نيو جيرسي، مقالًا ذهبت فيه إلى أنَّ توضيح الفقرات المشكلة في النصِّ القرآني لن تتأتى على الأرجح إلا من خلال (التخلي عن التصوّر التقليدي لنشأة القرآن). ومنذ عام ١٩٩١م اقترح جيمس بيلامي، من جامعة ميشيغان، في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية سلسلة من الاستدراكات والتصويبات للنصّ القرآني، وهي استدراكات تصل من وجهة نظر المسلمين السنيين إلى حدّ التنقيح لكلام الله.

تعدُّ كرون واحدة من أكثر العلماء اهتمامًا بهذا الحقل الدراسي، وهجومًا على القيم والمعتقدات السائدة فيه، وقد كتبت وشاركت خلال السبعينيات والثمانينيات في العديد من الكتب، ولعلّ أكثرها جرأة ما شاركت فيه مع مايكل كوك بعنوان: «Hagarism: The Making of the Islamic World» أو الهاجرية: تشكّل العالم الإسلامي (١٩٧٧م)؛ قدمت فيه رؤية راديكالية حول أصول الإسلام وكتابة التاريخ الإسلامي، ومن بين الادعاءات المثيرة للجدل، والتي قدمتها في الهاجرية أنَّ النصَّ القرآني جاء في وقت لاحق على التاريخ الشائع بين الناس «لا يوجد دليل قاطع على ظهور القرآن بأيّ شكلٍ من الأشكال قبل العقد الأخير من القرن السابع»؛ وأنَّ مكة لم تكن الملاذ الإسلامي الأول: «تشير الأدلة بشكلٍ لا لبس فيه إلى ملاذ في الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية... مكة المكرمةً كانت مرحلة ثانوية»؛ وأنَّ الفتوحات العربية سبقت إضفاء الطابع

(١) باتريشيا كرون (١٩٤٥م – ٢٠١٥م)، هي مستشرقة أمريكية من أصل دانمركي، وتعدّ أهم رواد التوجه التنقيحي، وصاحبة أفكار ذائعة الصيت حول تاريخ الإسلام المبكّر وتاريخ الإسلام، حيث تشكك في كون القرآن الذي بين أيدينا يعود إلى القرن السابع الميلادي، كما تشكك في كون الإسلام قد نشأ في مكة الحالية، لها عدد من الكتب المهمّة، على رأسها «الهاجريزم» مع ماكيل كوك (١٩٧٧م)، وهو مترجم للعربية، حيث ترجمه نبيل فياض بعنوان «الهاجريون»، وصدر عن المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٥م، وكتاب «تجارة مكة» (١٩٨٧م) وهو مترجم للعربية أيضًا، حيث ترجمته آمال محمد الروبي، وصدر عن المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٥م

المؤسسي على الإسلام: «لقد تشكّل التصوّر اليهودي المسياني في صورة غزو عربي للأرض المقدسة»؛ وأن فكرة الهجرة، أي هجرة محمد وأتباعه من مكة إلى المدينة المنورة في عام ٦٢٢، قد نشأت وتطوّرت بعد وفاة محمد بفترة طويلة «لا يوجد مصدر يعود تاريخه إلى القرن السابع يحدد الحقبة العربية على أنها حقبة الهجرة»، وأن مصطلح «مسلم» لم يكن شائعًا في الإسلام المبكر «ليس هناك سبب وجيه لافتراض أنّ حاملي هذه الهوية البدائية يدعون أنفسهم «المسلمين»، غير أن المصادر... تكشف عن تسمية سابقة للمجتمع ظهرت في اليونانية باسم «Magaritai»، ومعناها المهاجرون في ورق البردي من عام ٦٤٢، وفي السريانية باسم «مهاجر» في وقت مبكر من عام ٦٤٠.

تعرض كتاب «الهاجرية» لهجوم مباشر من علماء مسلمين وغير مسلمين على حدٍّ سواء؛ لاعتماده الشديد على مصادر معادية[١]: «هذا كتاب كتبه المؤلفان

(١) جدير بالنظر أنَّ هذا النهج ذاته الذي يسلكه التنقيحيون في التعامل مع التراث الإسلامي وتزييفه وإقصاء مصادره والتشكيك فيها، تعرض لنقد كثيف من قِبَل العديد من المستشرقين الكبار؛ ومن ذلك ما تقوله المستشرقة الألمانية الكبيرة أنجيليكا نويفرت: «عندما يفقد الموروث موضوعيته تتلاشى الحقيقة التاريخية لمكانتي مكة والمدينة وكذلك الدور التاريخي للنبي محمد، وبذلك يتحول القرآن إلى نصّ وصفي بما يفسر على أنه اختلاق لاحق لا يمكن الجزم بصحته تاريخيًّا. ومما لا ريب فيه أن هذه النظرة ليست غير معقولة فحسب بل مخالفة للمنطق، فقد أثبتت وبشكل ملموس مخطوطات ونقوش وكتابات اكتشفت أخيرًا (ظهور القرآن في القرن السابع)». مقالة القرآن جزء من أوروبا، ت: حامد فضل الله-عصام حداد، موقع جدلية بتاريخ ٥ يوليو-٢٠١٢، https://bit.ly/2NtwPXI.

وفي نفس السياق تأتي انتقادات نومان دانييل (١٩٤٢م)، والمؤرخ التونسي هشام جعيط (١٩٣٥م)، الذين اعتبروا إقصاء المصادر العربية تمامًا في كتابة تاريخ الإسلام تشكيكًا مجانيًّا وأمرًا في غاية التعسف، وأنَّ بناء النظريات والأفكار عن تاريخ الإسلام المبكر على أساس المصادر الثانوية أمرًا بعيدًا عن الصرامة العلمية، ويقول جعيط عن بعض هذه الأفكار: «هي لا تمثل سوى عدم الشعور بالمسئولية العلمية، هؤلاء اعتبروا أنَّ الدراسات الإسلامية في الغرب لا تمس إلا قليلًا جدًّا من الناس، واعتبروا أنَّ كبار العلماء في الميدان قد خبا ذكرهم ودرجوا، فيمكن عندئذ البوح بأية فكرة من دون رقابة الرابطة العلمية العالمية كما في الفيزياء أو البيولوجي، علم من دون تثبت ولا مسئولية ولا حذر، بل علم خيالي كما نراه في كتابات «كرون»، حيث لا يكفي الاعتماد على مصادر عديدة أو اكتشاف مصدر ثانوي لتقرير الحقائق التاريخية ووراء ذلك بناء النظريات الوهمية»، ويقول مُجْمِلًا نظرته حول هذا الاتجاه: =

استنادًا إلى مصادر يرى المسلمون أنها أقامت وزنًا لشهادة الكفار، بل وبالغت في الاعتداد بها». وقد تراجع كلّ من كرون وكوك عن بعض الأفكار الراديكالية التي وردت في هذا الكتاب؛ ومنها ما يتعلق بعمر النبي محمد، وأنه عاش لسنتين بعد تاريخ الوفاة الذي يشيع في الأوساط الإسلامية، وأنَّ تاريخ هجرته إلى المدينة أمر مشكوك فيه، غير أن كرون واصلت تحدي وجهات النظر الإسلامية والغربية حول التاريخ الإسلامي في كتاب آخر لها ظهر عام ١٩٨٧م تحت عنوان: «Meccan Trade and the Rise of Islam» أو «التجارة المكيّة وظهور الإسلام»؛ إذْ عرضت رأيًا مفصلًا يخالف ما ساد بين العلماء والباحثين الغربيين (وبعض المسلمين)، ذهبت فيه إلى أن الإسلام ظهر على إثر حركة تجارة التوابل العربية.

وتأتي مقاربة بوين الحالية لتاريخ القرآن لتتفق مع الاتجاه التنقيحي المعاصر، يقول بوين: تقوم فكرتي على أساس أنّ القرآن عبارة عن مزيج من النصوص، التي لم تكن جميعها مفهومة تمامًا حتى في زمن محمد؛ بل ربما سبقَ العديد من هذه النصوص ظهور الإسلام نفسه بفترة طويلة. كما أنَّ المصادر التراثية الإسلامية تشتمل على كمّ هائل من المعلومات المتناقضة، من بينها قاعدة مسيحية كبيرة يمكننا أن نستمد منها تاريخًا مضادًا إذا أرادنا ذلك.

تُدافع باتريشيا كرون عن أهداف هذا النوع من التفكير، وترى أنَّ القرآن نصٌّ مقدسٌ، له تاريخه مثله مثل أي نصّ مقدس آخر، غير أننا لا نعرف تاريخه حقّ المعرفة، ونميل إلى إثارة موجة من الاعتراضات عندما ننبري لدراسته، ولن يمانع أحد إذا صدرت هذه الأصوات المعارضة من باحثين غربيين، لكن إذا

= «إن ما نعيبه على الاستشراق الجديد انفلاته من عقاله وابتعاده عن الصرامة المنهجية التاريخية بتعلّة الصرامة نفسها، أو حبًّا للجديد»، انظر: في السيرة النبوة (٢)، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص١٤، ومن الكتب العربية التي صدرت في سياق النقاش المنهجي مع هذا التوجه كتاب آمنة الجبلاوي، «الإسلام المبكر والاستشراق الأنجلوساكسوني الجديد، باتريشيا كرون ومايكل كوك نموذجًا»، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، بغداد، ٢٠٠٨.

انبعثت هذه الأصوات من باحثين آخرين هنا ينبري الغربيون للدفاع عن احترام عقائد المسلمين، ويكون السؤال: من أنت حتى تتلاعب بتراثهم؟ لكننا المعنيون بدراسة الإسلام لا نحاول هدم ديانة أحد.

لا يتفق الجميع حول هذا التقييم، وخصوصًا أن الدراسات القرآنية الغربية جاءت في سياق يتّسم بالعداء المعلن بين المسيحية والإسلام، «لا شك أنَّ الحركة الواسعة التي ظهرت في الغرب على مدى القرنين الماضيين وعُنيت «بتفسير» الشرق وعُرفت باسم «الاستشراق» واجهت هجومًا شديدًا خلال السنوات الأخيرة؛ لأنها حملت نفس الانحياز الديني والثقافي بطريقة فجّة».

لقد بدا القرآن بالنسبة للباحثين المسيحيين واليهود خاصّة كنصّ يحمل هالة من الهرطقة، فعلى سبيل المثال يَرى المستشرق ويليام موير (١٨١٩ - ١٩٠٥)[١] في القرن التاسع عشر أنّ القرآن أحد ألدّ أعداء الحضارة والحرية والحقّ، الذي لم يكتشف العالم حقيقته بعد.

وكذلك فعل الباحثون السوفييت، حيث انطلقوا في دراستهم لأصول الإسلام بدافع أيديولوجي وبحماس يكاد يكون تبشيريًّا. ففي فترة العشرينيات والثلاثينيات صدر منشور سوفييتي بعنوان «Ateist» نشر سلسلة من المقالات تفسِّر ظهور الإسلام بمترادفات ماركسية-لينينية. لخصت آن لامبتون معظم ذلك العمل في كتاب «الإسلام وروسيا» الذي صدر عام (١٩٥٦م)، وذكرت أنّ عددًا من الباحثين السوفييت يرون أنَّ «القوة الباعثة لهذا الدين الناشئ هو البرجوازية التجارية في مكة والمدينة»، وأنّ باحثًا يُدعى تولستوف ذكر أنّ «الإسلام كان

(١) وليام موير (١٨١٩م-١٩٠٥م) مستشرق أسكتلندي، ولد في جلاسجو، تعلم اللغة العربية واهتم بالتاريخ الإسلامي أثناء وجوده بالهند كمشتغل في الإدارة المدنية لشركة الهند الشرقية، وهناك شارك في بعض الحملات التبشيرية التي كنت تقوم بها البعثة التبشيرية في مدينة أجرا، تركزت اهتماماته في السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الإسلامية، وهو صاحب الكتاب الشهير «حياة محمد وتاريخ الإسلام حتى عصر الهجرة، ١٨٥٦-١٨٦١»، وكذا كتاب «شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية، ١٨٥٦»، وقد تولى رئاسة جامعة أدنبرة بأسكتلندا منذ عام ١٨٨٥م وإلى عام ١٩٠٣م.

حركة اجتماعية دينية نشأت في مجتمع عربي غير إقطاعي يسترقّ الناس»، وأنَّ باحثًا آخر هو موروزوف يرى أنه «إلى وقت الحروب الصليبية لم يكن الإسلام متميزًا عن اليهودية، وحينها فقط اكتسب الإسلام شخصيته المستقلة، بينما النبي محمد والخليفة الأول هما شخصيتان أسطوريتان»[١].

يبدو أنّ موروزوف منظّر مولع بالاستعراض، وقد كتبت لامبتون أن «موروزوف» ذكر في كتابه «المسيح» أن في القرون الوسطى كان الإسلام مجرد فرع من الآريوسية، أثار ظهوره ظاهرة جوية وقعت في البحر الأحمر قرب مكة.

ليس من المستغرب إذن -في ظلّ تحيّز كثير من الدراسات النقدية غير الإسلامية التي تناولت القرآن- أن يميل المسلمون إلى رفضها بشكلٍ قاطعٍ. إلا أن ثمَّة اعتراض بليغ كُتب في عام ١٩٨٧م في دورية العالم الإسلامي «Muslim World Book Review» في مقال بعنوان: «منهج مضاد للحقيقة: الاستشراق والدراسات الإسلامية»، كتبه الناقد المسلم برويز منظور[٢]، أرجع بدايات

(١) لا شك فهذا الكلام لا يوجد أي أساس علمي له، بل هو مجموعة من التشكيكات المجانية القائمة على مسبقات تَصِمُ العرب والمسلمين بعدم إمكان كتابة التاريخ! لكن الطريف وبعيدًا عن هذه المنطلقات غير العلمية، أنَّ إثبات وجود ما يعتبرونه «شخوص الإسلام المبكر»، ثابت حتى في المدونات غير العربية وغير الإسلامية، فكما يشير بريمار في «تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ» فثمّة نصوص سيريانية مكتوبة في وقت معاصر للنبي تقريبًا، تتحدث عن الفتح العربي، وعن ظهور النبي العربي مع المقاتلين العرب أو «السارسين»؛ مما يعني أنَّه حتى مع إقصاء المصادر العربية تمامًا يظلّ التشكيك في مسألة وجود النبي والخلفاء الأوائل تشكيكًا لا يستحق أي اهتمام، انظر: تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، ألفريد لويس دي بريمار، ترجمة: عيسى محاسبي، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص١٦٣.

(٢) برويز منظور، كاتب وناقد مقيم في ستوكهولم، وله عدد من المقالات التي تدور حول الإسلام والقضايا المعاصرة، وعدد من أعماله منشور في مجلة «الإسلام النقدي»، وهو مشروع لبعض الكتّاب المسلمين في معهد مسلم في لندن، والذي يتبنى رؤية خاصّة للإسلام، حيث يصفون المسلم النقدي أو الجذري بكونه ضد التقليديين وضد الأصوليين وضد الحداثيين وضد المستشرقين، ويحاولون تقديم رؤى جديدة لقضايا الإسلام، وفتح باب النقاش المنطلق من رؤية إسلامية لكلّ قضايا العصر الحديث، ومجلتهم تنشر المقالات وعروض الكتب والأبحاث في هذا السياق، وينطبق على كتابات منظور نفس هذا الوصف.

البحوث القرآنية الغربية إلى «مستنقعات الجدل الكهنوتي في القرون الوسطى المسيحية»؛ واصفًا حالتها المعاصرة بأنها قد وصلت إلى طريق مسدود من صنع يديها، شنَّ منظور هجومًا منهجيًّا معقدًا على كلّ الأسلوب الغربي في تناول الإسلام، وافتتح مقالته بغضبٍ شديدٍ قائلًا: إنَّ مؤسسة الاستشراق للدراسات القرآنية، مهما كانت مزاياها وخدماتها، إلا أنَّها مشروع نشأ من الحقد، وولد من الإحباط، وتغذّى بالانتقام، ضغينة القوي على الضعيف، وخيبة العقلاني من الخرافة، وثأر التقليدي من المنشقّ. وفي ساعة انتصاره العالمي نظّم الإنسان الغربي صفوف الدولة والكنيسة والأكاديمية؛ ليهاجم بإصرار حصن العقيدة الإسلامية. وقد اجتمعت كلّ الخصال المنحرفة لشخصيته المغرورة: عقلانيته المتهورة، حلمه بالتسلط على العالم، والتطرّف المتعصب، في مؤامرة غير مقدَّسة لزحزحة النصوص الإسلامية من موقعها الثابت كرمز للأصالة التاريخية والأخلاقية التي لا مراء فيها. والغنيمة العُظمى التي يبحث عنها الإنسان الغربي في هذه المغامرة الجريئة هي العقل المسلم ذاته؛ كي يتخلص الغرب كليًّا من «مشكلة» الإسلام، يرى الغربُ أنَّ الوعي المسلم يجب أن يصبح يائسًا من اليقين الفكري بألوهية الرسالة التي ظهرت للنبي. فقط المسلم الذي يشكّ في الأصالة التاريخية والاستقلال المذهبي للوحي القرآني يتنازل عن رسالته العالمية، وبذلك لن يشكّل تحدٍّ للسيطرة الغربية على العالم، هكذا هي العقلية الخفية -إن لم تكن الواضحة- لهجوم المستشرقين على القرآن.

وبالرغم من هذه المقاومة، واصل الباحثون الغربيّون من شتّى المجالات الأكاديمية واللاهوتية والصحافية عملهم، وعمدوا إلى توظيف أحدث المنهجيات الجديدة والمعاصرة في النقد التاريخي والنصّي في دراستهم للقرآن.

ومما يدل على كثرة الدراسات النقديّة المتاحة في الوقت الحالي سعي دار النشر الأوروبية الشهيرة «بريل» التي سبق أن نشرت أعمالًا كبيرة مثل «موسوعة معارف الإسلام» وكذلك «مخطوطات البحر الميت» للبدء في مشروع «موسوعة

معارف القرآن» لأول مرة. وأمَّل جين مكاوليف، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة تورونتو والمحرر العام للموسوعة، أن تؤدي الموسوعة دورًا مشابهًا للموسوعات الإنجيلية، وأن تكون «تلخيصًا لوضع البحوث القرآنية في نهاية الألفية». ويجري تحرير مقالات الجزء الأول من الموسوعة حاليًا وتُجهز للنشر في وقت لاحق من العام الحالي -أي عام (١٩٩٩م)-، وسوف تكون موسوعة القرآن عملًا مشتركًا، يقوم به مسلمون وغير مسلمين، وتقدّم مقالاتها مقاربات مختلفة في تناول تفسير القرآن، بعضها يعاكس النظرة الإسلامية التقليدية، وبالتالي من المتوقع أن تزعج الكثيرين في العالم الإسلامي حتمًا حيث لم يَحِنِ الوقت بعد لدراسة القرآن بطريقة نقدية تنقيحية، ولعلّ محنة نصر أبو زيد، أستاذ اللغة العربية المصري الذي يعمل ضمن الهيئة الاستشارية للموسوعة، خير دليل على الصعوبات التي تواجه الباحثين المسلمين الذين يحاولون إعادة تفسير التراث بصورة جديدة.

ويرى نصر حامد أبو زيد أنَّ القرآن نصّ، نصّ أدبي، والطريقة الوحيدة لفهمه وشرحه وتحليله تكون من خلال المنهجية الأدبية، وهذه مسألة لاهوتية أساسية. ونظرًا لإفصاحه عن أفكارٍ كهذه في كتاباته، وتحديه ما استقر في أذهان الناس من ضرورة قراءة القرآن بشكلٍ حرفي؛ لأنه كلام الله المنزل والمعصوم عن التغيير والتبديل =حُكِمَ عليه بالردَّة عام ١٩٩٥م، وتأيّد هذا الحكم في عام ١٩٩٦م في المحكمة العليا بمصر، ثم استندت المحكمة إلى الشريعة الإسلامية التي تحرم زواج المسلمة من المرتد، فأمرت أبا زيد بتطليق زوجه ابتهال يونس، وأصدرت حكمًا بالتفريق بين أبي زيد وزوجته ابتهال يونس، (وهو حكم وصفته الزوجة بأنه جاء بمثابة «ضربة بحجر على الرأس»).

من جانبه يصرُّ نصر أبو زيد على أنَّه مسلم تقيٌّ، غير أن له رأيًا في المضمون اللفظي الظاهر للقرآن، كما في الأحكام البالية التي تتعرض لقضية المرأة والتعامل معها بما يضرُّ بسمعة الإسلام نفسه؛ إذ يرى بأن ظاهر النصّ القرآني أقل أهمية من

باطنه الذي هو أكثر تعقيدًا وتجديدًا وإرواءً للجانب الروحي. ويرى أنَّ الرؤية الإسلامية التقليدية تبخس القرآن قدره؛ إذ تختزل النصّ السماوي الحيوي الخالد في مجموعة من التفسيرات البشرية الجامدة التي لا حياة لها ولا معنى سوى (حلية...رقية، زخرفة).

ظلَّ نصر أبو زيد لفترة من الوقت في مصر محاولًا نفي الردّة عنه، لكن بسبب تلقيه تهديدات كثيرة تتوعده بالموت فضلًا عن مضايقات العامة، قرَّر الهروب هو وزوجته من مصر إلى هولندا، واصفًا الأمر برمته (بالمهزلة المروعة).

أما الشيخ يوسف البدري، الذي كانت خطبه عاملًا أساسيًّا في الهجوم على نصر أبو زيد، فقد بدا مبتهجًا، وقال: «لسنا إرهابيين، فنحن لم نستخدم الرصاص أو الأسلحة النارية، لكننا أوقفنا عدوًّا من أعداء الإسلام المتربصين ممن يريدون السخرية والاستهزاء بديننا... ولا يجرؤ أحدٌ على التفكير بإلحاق الضرر بالإسلام بعد الآن».

يبدو أنَّ خوف نصر أبو زيد على حياته له ما يبرره، ففي عام ١٩٩٢م اغتيل الصحفي المصري فرج فودة بأيدي إسلاميين؛ بسبب كتاباته النقدية المحرجة لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، وفي عام ١٩٩٤م طعن الروائي الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ في رقبته، بسبب مؤلفاته وخاصّة رواية «أولاد حارتنا» (١٩٥٩م)، وهي رواية مجازية حاكى فيها الكاتب القرآن، يستعرض فيها بهرطقة مفاهيم تتعلق بالله والنبي محمد.

إنّ الخروج عن التفسير السني المأثور، كما يقول المفكر الجزائري محمد أركون، أستاذ الفكر الإسلامي المتقاعد بجامعة باريس، «هو عمل حسَّاسٌ للغاية»، وله عواقب وخيمة، ويضيف «إن الملايين والملايين من الناس يرجعون إلى القرآن بشكل يومي؛ ليفسروا أفعالهم ويبرروا تطلعاتهم، ونطاق هذه المرجعية يفوق بشكلٍ كبيرٍ ما كان عليه الحال من قبل».

محمد في الغار:

تقع مكة في وادٍ مجدب بين سلسلتين من التلال المنحدرة غربي المملكة العربية السعودية اليوم، ويحدّها من ناحية الغرب ساحل البحر الأحمر المتعرج، وفي الشرق تمتد إلى صحراء الربع الخالي، أكبر مساحة رملية على سطح هذا الكوكب، ولا تحتلّ موقعًا جذّابًا؛ إذ الأرض جافة مترية وشمسها حارقة، وتعصف بالمنطقة بأكملها ريح الصحراء الحارة المدوية، وعلى الرغم من أنَّ الأمطار قد لا تهطل لسنوات، إلا أنها إن هطلت فأمطارها ثقيلة تخلف سيولًا جارفة تنحدر من التلال بسرعة، وتغمر الحوض الذي تقع فيه مكة وتغمرها. وباعتبارها مسرحًا لنزول الوحي الإلهي؛ فإنَّ منطقة مكة بكلّ تفاصيلها هي بقعة ملائمة مثلها مثل جبال سيناء أو برية يهوذا.

إنّ المصدر الحقيقي الوحيد للمعلومات التاريخية عن مكة قبل الإسلام وظروف الوحي القرآني هو الرواية الإسلامية التقليدية حول نشأة دين الإسلام، وفيما يلي خلاصة هذه الرواية.

خلال القرون التي سبقت ظهور الإسلام كانت مكة حرمًا وثنيًّا لها مكانتها العريقة والأصيلة، أمَّا طقوس الطواف حول الكعبة-الحرم المقدس فما زالت طقوسًا رئيسة في الديانة الإسلامية حتى يومنا هذا؛ إذ يؤمن المسلمون أنَّها قد بنيت أصلًا على يد إبراهيم (الذي يعرفه اليهود والنصارى باسم أبراهام)، وابنه إسماعيل.

ازدهرت مكة في القرن السادس الميلادي، وانتشرت عبادة الأصنام بمختلف الأشكال والأحجام، ووفقًا للقصة التقليدية، فمع بداية القرن السابع الميلادي كان هناك هيكل مكوّن من ٣٦٠ تمثالًا حول الكعبة، (وفي الداخل تصاوير ليسوع ومريم العذراء، وأصنام أخرى).

في هذه الأثناء يقال إنه نزل الوحي بأول آيات من القرآن، في سنة ٦١٠م، على تاجر من مكة اسمه محمد بن عبد الله، كان محمد يخرجُ من مكة الوثنية إلى غار قريب؛ يتأمل ويتحنّث في عزلته بعيدًا عن الناس، وذات مرة يقال إن ملاكًا زاره يدعى جبريل، وهو الملاك نفسه الذي بشّرَ مريم العذراء بيسوع في مدينة الناصرة قبل هذا بنحو ٦٠٠ سنة، وأمر جبريلُ محمدًا أن يقرأ، وكان هذا الأمر إيذانًا ببدء رسالة محمد، ومنذ تلك اللحظة وحتى وفاته نزل الوحي على محمد الذي يُفترض أنه أميّ، نزل باللغة العربية؛ ليعلن بأسلوب شاعري وبلاغي لا نظير له عن صيغة جديدة من دين التوحيد ممثلة في «الإسلام»، ومعناه (الخضوع والتسليم لله). وبلّغ محمد هذا الوحي تمامًا كما نزل عليه لأفراد أسرته، وأصدقائه المتعاطفين، الذين بدورهم حفظوه عن ظهر قلب أو دونوه.

سرعان ما بدأ سادة مكة في اضطهاد محمد وأتباعه المخلصين الذين دعاهم دينهم الجديد إلى نبذ الأساس الوثني الذي تقوم عليه الحياة الاقتصادية والثقافية في مكة، ونتيجة لذلك الاضطهاد هاجرت تلك المجموعة الصغيرة عام ٦٢٢م قرابة ٢٠٠ ميل شمالًا إلى يثرب، والتي عرفت لاحقًا باسم «المدينة» (اختصارًا لمدينة النبي). لقد جاءت هذه الهجرة إيذانًا بميلاد مجتمع إسلامي مستقلّ وقائم بذاته، وأصبح عام ٦٢٢م العام الذي شهد بداية التقويم الإسلامي.

في المدينة استمر نزول الوحي على محمد، في صورة آيات تُعالجُ أحكامًا عملية وأُخرى عقائدية، إلى أن جاء عام ٦٣٠م فاجتمع لمحمد عددٌ كبيرٌ من الأنصار يكفي لفتح مكة. قضى محمد السنتين الأخيرتين من عمره في هداية الناس وتوطيد سلطته، واستمر في تلقي الوحي.

يذكر التراث الإسلامي أنّ محمدًا وافته المنية سنة ٦٣٢م، ولم يكن القرآن قد جُمع في مصحف واحد، كانت الآيات مدونة على (سعف النخيل، والحجارة المسطَّحة، وفي قلوب الرجال)، (وهذا ليس بمستغرب؛ فالتراث الشفهي كان

راسخًا وقويًّا، أمَّا الكتابة التي كانت بغير إعجام وإعلال آنذاك فهي مجرد أداة مساعدة على الحفظ).

لم يكن تدوين القرآن من الشواغل الرئيسة، فعرب المدينة الذين تشكلوا من ائتلاف ضمَّ تجارًا سابقين وبدوًا من الصحراء ومزارعين؛ ألّف الدين الجديد بينهم، واستلهموا سيرة النبي وأحاديثه، كانوا في ذلك الوقت يسعون إلى تحقيق سلسلة طويلة من الفتوحات العظيمة الناجحة باسم الإسلام. وفي عام ٦٤٠م كان العرب قد فرضوا سلطانهم على معظم سوريا، والعراق، وبلاد فارس، ومصر، وبعد ذلك بثلاثين سنة امتدَّ سلطانهم لأجزاء من أوروبا، وشمال أفريقيا، وآسيا الوسطى.

وإبّان العقود الأولى من الفتوحات العربية قُتِلَ كثيرٌ من أصحاب محمد، وبموتهم ماتت حصيلةٌ كبيرةٌ من القرآن، وبدأ المسلمون الجدد على حدود الإمبراطورية يتجادلون حول تلاوة القرآن. عاد قائد جيش المسلمين في أذربيجان إلى الخليفة عثمان (٦٤٤-٦٥٦) -الخليفة الثالث خلفًا لمحمد- فأعرب له عن مخاوفه من نشوب خلافات طائفية، وشجعه بأن (يُدرك الناس قبل أن يختلفوا على القرآن، كما اختلف المسيحيون واليهود على الكتاب المقدَّس).

جمع عثمان لجنة تحريرية تولَّت جمع أجزاء القرآن، التي تمَّ حفظها أو دونها صحابة محمد، وكانت النتيجة ظهور نسخة مكتوبة من القرآن، وأمرَ عثمانُ بإحراق جميع النسخ الناقصة الأخرى من المصاحف، ونسخت النسخة الجديدة ووزعت نسخٌ منها على المراكز الرئيسة للإمبراطورية الإسلامية المزدهرة[١].

(١) ليس صحيحًا ما ذكر ليستر من قِبَل انشغال المسلمين بالحروب عن كتابة القرآن، فالقرآن جُمع بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وليس في عهد الخليفة الثالث عثمان كما قال ليستر، فعندما قرّر الخليفة الثالث نسخ القرآن وإرساله للأمصار اعتمد النسخة التي عند حفصة بنت عمر، وهي النسخة التي جمعها أبو بكر الصديق بعد حروب الردة ومقتل الكثيرِ من الحفّاظ فيها، فربما الفكرة المسبقة عن عدم أهمية الكتابة لدى المسلمين الأوائل وعن كون جمع القرآن وكتابته هو قرار سياسي أموي -كما هي نظرة الكثير من المستشرقين- تبدو مسيطرة هنا على ليستر لدرجة أنه حذف -دون مبرّر- مرحلة أساسية من مراحل جمع النصّ وتدوينه.

خلال القرون القليلة التالية التي عزز فيها الإسلام أقدامه، وصار كيانًا دينيًّا وسياسيًّا، ظهرت مجموعة واسعة من الأدبيات التفسيرية والتاريخية تشرح القرآن وصعود الإسلام، وكان من أهم عناصرها: «الحديث»، أو مجموع أقوال وأفعال محمد، و«السنة» مجموع العادات الإسلامية الاجتماعية والشرعية؛ و«السيرة»: سيرة النبي الذاتية؛ ثمَّ «التفسير».

ومن هذه المصادر التراثية الإسلامية -التي جمعت في شكلٍ مكتوب، ويرجع معظمها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي، ومنتصف القرن العاشر- تمَّ استقصاء كافة الروايات حول نزول الوحي والسنوات الأولى للإسلام.

«لِقَومٍ يعقلون»:

يشبه القرآن إلى حدّ ما «العهد الجديد» من حيث الحجم، ويتكون من (١١٤) سورة، تتفاوت في طولها ومواضيعها، كما أنَّ ترتيب السور ليس ترتيبًا زمنيًّا ولا موضوعيًّا، وقسم كبير من السور رتّب من البداية حتى النهاية حسب الطول ترتيبًا تنازليًّا، وعلى الرغم من بنيته الهيكلية غير المألوفة، إلا أن الأمر المفاجئ بالنسبة للمطّلعين الجُدد على القرآن هو درجة التشابه في الأفكار والمعتقدات والقصص مع مثيلاتها في الكتاب المقدس.

الرب (أو الله باللغة العربية): هو إله مطلق القوة، والقدرة، والعلم، والرحمة، خلق العالم وكلّ ما فيه، يُرسل الأنبياء والرسل لهداية البشر، وفي وقت ما في المستقبل لا يعلمه إلا هو ستحلّ نهاية العالم ويأتي يوم القيامة.

وآدم هو أول إنسان طُرد من الجنة؛ لأنه أكل من الشجرة المحرَّمة، وبنى نوح سفينة لينقذ على متنها مجموعة مختارة من الكائنات الحيّة من الطوفان الذي حلَّ بالأرض جرَّاء غضب الرب، وإبراهيم يهيئ نفسه للتضحية بابنه إرضاءً لله، ويخرج موسى بني إسرائيل من مصر، ويتلقى وحيًا من الله فوق جبل سيناء، وعيسى الذي ولد من مريم العذراء يقوم بالمعجزات، يجمع التلاميذ من حوله، ثم يرتقي إلى السماء.

يولي القرآن عناية كبيرة بالتأكيد على هذا التراث التوحيدي المشترك، لكنه في الوقت ذاته يعمل جاهدًا على نحو لا يقلُّ أهمية لتمييز الإسلام عن اليهودية والمسيحية، فعلى سبيل المثال: يشير إلى أنبياء كهود، وصالح، وشعيب، ولقمان، وآخرين غيرهم، ممن تبدو أصولهم عربية، ويذكّر القرآنُ القرّاء بأنَّه نزل (بلسان عربي مبين/ لِقَومٍ يعقلون).

وعلى الرغم من تأكيداته المتكرِّرة على ذلك، إلا أن الأمر عكس ذلك في الواقع؛ إذ يصعبُ على القارئ المعاصر -وحتى من يجيدون اللغة العربية- فهم القرآن. وأحيانًا نجدُ تحولات مثيرة في الأسلوب، والإيقاع، والموضوع من آية لأخرى، ويفترض القرآن الإلمام باللغة، والقصص، والأحداث التي تبدو أنها فقدت حتى بالنسبة لأوائل المفسرين المسلمين، «وهذا هو حال نصّ تطوّر تطورًا مبدئيًّا ضمن تراث شفهي». ومن السهل العثور على تناقضاته الظاهرة؛ من ذلك: الإشارة إلى الله تارة بضمير المتكلم وتارة بضمير الغائب في الآية نفسها، وتكرار نفس القصة في أماكن مختلفة من النصِّ بصورة تنطوي على تناقض، فضلًا عن الأوامر الإلهية، والتي أحيانًا ما يناقض بعضها بعضًا، وفيما يخصُّ هذه الحالة الأخيرة يتوقع القرآن النقد، ويدافع عن نفسه بتأكيده الحق في نسخ حكم أو آية، ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾.

ولم يكن هناك مفرٌّ من النقد؛ فما إن زاد احتكاك المسلمين بالمسيحيين خلال القرن الثامن الميلادي، وما وقع من فتوحات، حتى برزت نزاعات جدلية لاهوتية، استند فيها المسيحيون وغيرهم على الحالة الأدبية المحيرة للقرآن كبرهان على أصوله البشرية؛ بل إنَّ علماء المسلمين أنفسهم راحوا يؤلفون المصنفات في الجوانب المشكلة من القرآن سواء على صعيد غريب الألفاظ، أو القراءات الشاذة، ومواضع مخالفة القياس في الإعراب وغيرها. واحتدم الجدل الكلامي بين علماء المسلمين في أواخر القرن الثامن الميلادي، بين فريقين: أحدهما يؤمن بأن القرآن كلام الله الأزلي غير مخلوق، وفريق آخر يرى أن القرآن مخلوق، مثله مثل أي شيء آخر، وأنه غير الله نفسه، وفي ظلّ حكم الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣)، أصبحت

وجهة النظر الأخيرة عقيدة سنيّة قائمة بذاتها، وحظيت بالقبول بين العديد من مدارس الفكر، ومن ضمنها مدرسة مؤثرة معروفة باسم المعتزلة، حيث وضعت أساسًا لاهوتيًّا يستند جزئيًّا إلى الفهم المجازي للقرآن بدلًا من فهمه الحرفي.

ومع نهاية القرن العاشر الميلادي تضاءل التأثير الفكري لمدرسة المعتزلة، لأسباب سياسية معقدة، وصار المذهب الرسمي مذهب «الإعجاز»، أو إعجاز القرآن، ونتيجة لذلك لم يترجم المسلمون معاني القرآن للمسلمين ممّن لا يتحدثون اللغة العربية، فكان الجميع يقرأ القرآن في الأصل العربي في كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وغالبيتهم لا يعرفون العربية، (أما الترجمات الموجودة فما هي إلا مجرد شروح). لقد كان تبني عقيدة الإعجاز القرآني بمثابة نقطة تحول رئيسة في التاريخ الإسلامي[1]، ومنذ القرن العاشر الميلادي حتى يومنا هذا ظلّ المسلمون ينظرون إلى القرآن على أنه كلام الله غير مخلوق.

(١) يكرر ليستر هنا فكرة طَرَقَها بعض التنقيحيين، مثل الأمريكي «جون وانسبرو» الذي يرى في كتابه الأساس «الدراسات القرآنية، مصادر ومناهج تفسير النصوص المقدسة» أن «عقيدة الإعجاز» هي المسؤولة بقدرٍ كبيرٍ عن إعطاء الصبغة القدسية للقرآن ولعملية جمعه وتدوينه، وتحويله في نظر المسلمين لكتاب «أزلي»، وهذا في سياق قراءته لقدسية النصّ والقول بأزليته كعملية لاحقة تاريخيًّا ومنفصلة عن النصّ نفسه ومضفاة عليه من خارجه، وليس كسمة نابعة من النصّ ذاته. وهذا الكلام يبدو شديد السقوط؛ نظرًا لاشتمال القرآن ذاته على الكثير من الآيات الصريحة التي تشير إلي إعجازه وما كان من تحدي العرب ساعة نزوله بالإتيان بكتاب مثله وعجزهم عن ذلك، بل كما يشير شتيفان فيلد في محاضرته «لغة القرآن، هل العربية لغة مقدسة؟» -وهي محاضرة ستنشر قريبًا على قسم الترجمات- فإن القرآن من أكثر الكتب حديثًا عن ذاته، وأنه من أكثر الكتب حجاجًا وتحديًا، وأن هذا التحدي تأتي في قلبه مسألة الإعجاز القرآني وخصوصًا إعجاز لغته، مما يعني أن مسألة الإعجاز مسألة مطروقة داخل النصّ ذاته وغير مفروضة عليه من خارجه، وأنها فرع على أزليته وكونه كلام الله وليست هي الأصل المنشئ لهذه العقيدة، وأما تأخّر صياغة هذه النظرية كلاميًّا فهو أمر طبيعي، فالمعتقدات في كلّ الأديان تأخذ وقتها للتحول لأبنية عقلية كلامية في سياقات لاحقة، لكن هذا لا ينفي وجود هذه العقائد في الكتب منذ البدء. كما أن جميع الطوائف الإسلامية -سواء طائفة المعتزلة أو غيرها- مقرة بموضوع إعجاز القرآن، وإنما خلاف بعضها يكمن في بعض تفاصيله وما يكون به التحدي والقدر المعجز للقرآن...إلخ وليس في أصل فكرة الإعجاز كما يصور ليستر.

نزعة تخريبية سيكوباتية[1]:

يتحدث جيرد بوين بازدراء عن النزعة التقليدية من جانب العلماء المسلمين والغربيين لقبول التصوّر التقليدي عن القرآن، فيقول: يزعم القرآن أنه مبين، لكن لو نظرتم إليه وجدتم كلّ خامس عبارة من عباراته لا معنى لها، سيقول المسلمون والمستشرقون غير ذلك، لكن الواقع أنّ خُمْسَ القرآن لا معنى له، وهذا ما سبب القلق التقليدي إزاء عملية الترجمة، فإذا كان القرآن غير مفهوم، حتى إنه يتعذر فهمه باللغة العربية؛ فإنه لا يمكن ترجمته ويخشى الناس ذلك. وفي ظلّ إصرار القرآن على أنه كتاب واضحٌ مبينٌ، وليس في الحقيقة كذلك، وهو أمرٌ يمكن لمتحدثي العربية أن يؤكدوه، فلا مفرَّ إذن من وجود تناقض. ثمَّة أمر آخر[2].

(١) السيكوباتية هي اضطراب شخصيّة يتضمن سلوكًا شاذًّا وغير مبال وخروجًا على الأعراف والقوانين الاجتماعية، وربما دلالة هذا العنوان في مقالة ليستر، هو ما في النزعة التنقيحية من لا مبالاة وعدم اكتراث تجاه عقائد المسلمين ومشاعرهم.

(٢) ينقل ليستر هنا عن بوين كلامًا مشكلاً حيث يكرر فيه بوين خطئًا تقليديًّا نجده في كثير من الكتابات الغربيّة حول القرآن، وهو عدم التعامل مع القرآن كنصّ له لغته الخاصة وأساليبه وتراكيبه الخاصة؛ مما يجعل اكتشاف هذه الأساليب والتراكيب هو المفتاح الوحيد لفهمه، كما أنَّ فهم أساليب وتراكيب وطرق استخدام أي نصّ للغته هي الطريق الوحيد لفهمه، لكن بدلًا من هذا، نجدُ بوين يلجأ للحل السهل وهو اتهام القرآن ذاته بأنه غير مفهوم، ونظن أن بوين لو ظلّ يحكّم معايير معينة عن الكتابة ويقحمها على كلّ نصّ يقرؤه، فليس القرآن وحده سيغمض عليه، بل أكثر النصوص التي تستخدم أساليبها وتراكيبها الخاصة الديني منها وغير الديني، وسيتفقد في كلّ مرة تواضع الباحث ليطلق نفس الآراء المجملة عن غموض النصوص بدلًا من بذل الوقت والجهد في اكتشاف طبيعتها اللغوية والأسلوبية الخاصة، ولعلّ هذا الإشكال، أي عدم الانتباه للغة القرآن ولاستخدامه للغته ولتراكيبه وأساليبه أثناء تكوين الرؤى عنه، كان موضع نقاش لعدد كبير من المستشرقين، وسيجدُ قارئنا في محاضرات ترجمناها وتنشر لاحقًا للمستشرق الألماني شتيفان فيلد عن لغة القرآن وعن الترجمة حديثًا حول هذا الإشكال، كما يمكن للقاريء من أجل التفصيل مراجعة مادة «مقاربة نص مؤسس؛ الصعوبات، الحلول، الحدود، انطلاقًا من دراسة القرآن» لآن سيلفي بواليفو، ترجمة: خليل اليماني، والمنشورة ضمن نفس الملف «الاتجاه التنقيحي»، http://tafsir.net/translation/8، حاشية رقم (٣) ص (٩، ١٠)، مسؤولو قسم الترجمات.

وقد بدأت في هذا القرن محاولات اكتشاف هذا الأمر الآخر، تقول باتريشيا كرون الباحثة في تاريخ صدر الإسلام: حتى وقت قريب جدًّا سلّم الجميع بأنّ كلّ ما يدعيه المسلمون ويذكرونه عن أصول ومصادر القرآن وتاريخه صحيح، وإذا طرحت هذا الافتراض فعليك أن تبدأ من الصفر. وليس هذا أمرًا هينًا قطعًا. لقد وصلنا القرآن مغلفًا بسياق تاريخي لا يقبل النقد والتحليل كما ذكرت كرون في كتاب لها بعنوان «Slaves on Horses» «عبيد على ظهور الخيل»، إذ تقول: «يعرض المنقحون التوراتيون لنا أجزاء من التراث العبراني خلال مراحل مختلفة من التبلور، ويمكن مقارنة شهاداتهم بشكلٍ مثمر وموازنتها مع بعضها البعض، لكن التراث الإسلامي لم يشهد هذا التبلور المرحلي، بل تولد من انفجار مباغت؛ لأن المصنفين الأوائل لم يكونوا ناقدين، بل مجرد جامعي ركام تخلو أعمالهم من الوحدة العامة بشكل لافت، ولا تنبعث إضاءات معينة من مقارنة أعمالهم».

ليس هذا بمستغرب في ضوء هذا الانتشار الهائل للإسلام في أول عصره ومرور الوقت بين ولادة الدين وأول توثيق منهجي منظم لتاريخه؛ فإنَّ عالم محمد كان مختلفًا تمامًا عن عالم المؤرخين الذين كتبوا عنه فيما بعد، فخلال القرن الأول الإسلامي وحده أصبحت فرقة من القبائل الصحراوية الوثنية أصحاب إمبراطورية دولية واسعة ذات مؤسسات توحيدية ازدهرت بنشاط علمي وأدبي غير مسبوقين.

يرى العديد من المؤرِّخين المعاصرين أنَّه لا يمكن للمرء أن يتوقع سلامة قصص الإسلام عن أصوله الخاصة -ولا سيما بالنظر إلى التراث الشفهي خلال القرون الأولى- من هذا التحول الاجتماعي الكبير، كما لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يكتب مؤرخ مسلم من العراق في القرن التاسع أو العاشر الميلادي، ويتجاهل خلفيته الاجتماعية والفكرية (وقناعاته العقدية)؛ ليصف بدقة الإطار العربي غير المألوف في القرن السابع.

ألف ستيفن همفريز (١٩٤٢) كتابًا بعنوان: «Islamic History: A Framework for Inquiry» أو «التاريخ الإسلامي: إطار البحث» عام ١٩٨٨م، لخّص فيه الإشكالية التي تواجه المؤرخين المعنيين بدراسة بداية الإسلام، وكان مما قال: إذا كان هدفنا فهم الطريقة التي استوعب بها مسلمو القرنين الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، والثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أصول مجتمعهم ونشأته؛ فهذا جيد جدًّا، أمَّا إذا كنا نسعى إلى معرفة (ما حدث حقًّا) في سياق إجابات موثّقة عن الأسئلة الحديثة حول العقود الأولى للمجتمع الإسلامي؛ عندئذ نكون في ورطة.

يعدُّ الباحث جون وانسبرو (١٩٢٨ - ٢٠٠٢)[١] الباحث السابق في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، الشخص الذي أحدث زلزلة عنيفة في حقل الدراسات القرآنية في العقود القليلة الماضية أكثر من أي شخص آخر، ويعيد بوين قراءة ما طرحه الآن وهو يستعد لتحليل المخطوطات اليمنية. تقول باتريشيا كرون: «إنّ جلّ ما ذكرته هي ومايكل كوك عن القرآن في كتاب «الهاجرية» استند إلى أفكار وانسبرو»، غير أنّ ثمة باحثين آخرين أقلّ إعجابًا بوانسبرو رأوا أنه يتشبث برأيه الخاطئ إلى حدٍّ كبير، واتهموه بالحمق والتضليل.

لكن شئنا أم أبينا، لا مفرّ لأي باحث يُعنى بالدراسات النقدية للقرآن اليوم من أن يتطرق إلى عملين أساسيين لوانسبرو: «الدراسات القرآنية: مصادر ومناهج تفسير النصوص المقدسة (١٩٧٧م)»[٢]؛ وكتاب «المحيط الطائفي: مضامين وتكوين تاريخ الخلاص الإسلامي (١٩٧٨)».

---

(١) جون وانسبرو (١٩٢٨م-٢٠٠٢م) مستشرق أمريكي، يعتبر هو رائد أفكار التوجه التنقيحي، وتعتبر كتاباته منعطفًا رئيسًا في تاريخ الاستشراق، حيث بدأت في تشكيك جذري في المدونات العربية الإسلامية وفي قدرتها على رسم صورة أمينة لتاريخ الإسلام وتاريخ القرآن، ودعا لاستخدام مصادر بديلة عن المصادر العربية من أجل إعادة كتابة تاريخ الإسلام بصورة موثوقة، وأهم كتاباته، «الدراسات القرآنية، مصادر ومناهج التفسير» (١٩٧٧م).

(٢) ترجمنا عرضًا لهذا الكتاب كتبه كارول كيرستن الباحث في (SOAS)، وهو منشور ضمن ملف «الاتجاه التنقيحي»، يمكن قراءته على هذا الرابط: https://bit.ly/2OAmxl6.

أخضع وانسبرو القرآنَ لترسانةٍ كاملةٍ مما سماه «أدوات وتقنيات» نقد الكتابِ المقدّس -أي نقد الصيغة، نقد المصادر، نقد التأليف، والكثير غير ذلك- واستنتج أنَّ القرآن لم يتطور بشكل تدريجي إلا في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وعبر فترة زمنية طويلة من انتقاله الشفهي عندما كانت الفِرَق والطوائف اليهودية والمسيحية لا تكفّ عن جدال بعضها بعضًا، وذلك في منطقة تقع في شمال مكة والمدينة، باتت تعرف الآن بسوريا، والأردن، وفلسطين، والعراق.

لقد استنتج وانسبرو أنَّ السبب وراء عدم وصول أي مصدرٍ إسلامي من القرن الأول أو ما شابهه يعود إلى أن مثل هذا المصدر لم يُوجد إطلاقًا.

بالنسبة لوانسبرو، يعتبر التراث الإسلامي مثالًا على ما يعرف عند علماء الكتاب المقدّس باسم تاريخ الخلاص: وهي قصة تحركها دوافع دينية ودعوية لبيان أصول الديانة، يَتِمُّ اختراعها في وقتٍ متأخرٍ وتُنْسَبُ إلى زمن قد مضى، وبعبارة أخرى، كما يقول وانسبرو في كتابه «الدراسات القرآنية»: إن إضفاء القداسة على القرآن والعلوم الإسلامية التي ظهرت لتفسيره قد تضمن عزو مجموعة متداخلة جزئيًّا من الأقوال المأثورة (يتجلى فيها أثر شريعة موسى) لصورة نبي من أنبياء الكتاب المقدس (عُدِّلت بفعل تأثير البشارة بمحمد لتشير إلى رسول عربي)، يحمل رسالة الخلاص (التي عُدِّلت بفعل تأثير اليهودية الحاخامية لتتحول في النهاية إلى كلمة الرب الخالدة).

لاقت نظريات وانسبرو الملغزة قبولًا في أوساط بحثية معينة، إلا أن العديد من المسلمين وجدوها مهينة جدًّا. فعلى سبيل المثال وصف برويز منظور دراسات وانسبرو القرآنية ودراسات الآخرين بأنها (استعراض خطابي وقح للقوة) (وفورة تخريب سيكوباتي)، لكن حتى منظور نفسه لا يقترح طرح المشروع النقدي للدراسات القرآنية؛ بل يحثّ المسلمين على خوض المعركة المعرفية وهزيمة أصحاب الفكر التنقيحي من الغربيين، معترفًا أنَّه سيتحتم على المسلمين عاجلًا

أو آجلًا (أن يُقاربوا القرآن انطلاقًا من فرضيّات منهجية، ومعايير تتناقض بشدة مع تلك التي نُقدسها ضمن تراثنا).

القراءات التنقيحية المعاصرة في العالم الإسلامي:

لا شك أنَّه على مدار أكثر من قرنٍ كانت هناك شخصيات عامّة في العالم الإسلامي حاولت دراسة القرآن والتاريخ الإسلامي من منظور القراءة التنقيحية، فليس البروفيسور المصري المنفي، نصر حامد أبو زيد، بدعًا من هؤلاء. ولعلّ الوزير المصري البارز، والبروفيسور الأكاديمي والأديب الرائع، طه حسين أشهر من سبقوا نصر أبو زيد في هذا الأمر، وبوصفه أحد الحداثيين، كرَّس طه حسين منذ بداية العشرينيات جهده لدراسة الشعر الجاهلي، وانتهى إلى نتيجة مفادها أن معظم الإنتاج الذي كتب في الأدب الجاهلي كان مفبركًا بعد مجيء الإسلام بغية تقديم الدعم الخارجي للأسطورة القرآنية.

مثال آخر هو الصحفي والدبلوماسي الإيراني علي دشتي، الذي ألّف كتابًا عنوانه «٢٣ عامًا: دراسة السيرة النبوية المحمدية» (١٩٨٥م)، طلب من أصحابه من المسلمين عدم اعتماد الروايات والأخبار التراثية في السيرة النبوية، والتي وصفها بأنها (صناعة أساطير وادعاء خوارق).

يشير أبو زيد أيضًا إلى محمد عبده كأحد الرواد السابقين في مدرسة الحداثة، وقد رأى أبو الحداثة المصرية في القرن التاسع عشر محمد عبده إمكانية قيام لاهوت إسلامي جديد ضمن سياق نظريات المعتزلة في القرن التاسع، فقد اكتسبت أفكار المعتزلة شعبية كبيرة في بعض الدوائر الإسلامية في مطلع هذا القرن، (ممَّا دفع الكاتب المصري المفكر أحمد أمين في عام ١٩٣٦م إلى القول بأنَّ «زوال المعتزلة كان أعظم مصيبة نزلت بالمسلمين؛ وأنهم ارتكبوا جريمة ضد أنفسهم»).

كما حمل الباحث الباكستاني الراحل فضل الرحمن لواء المعتزلة في العصر الحاضر، وقضى السنوات الأخيرة من حياته، منذ عام ١٩٦٠م حتى وفاته سنة ١٩٨٨م، في الولايات المتحدة، يدرّس للطلاب المعنيين بدراسة الإسلام من المسلمين وغيرهم تراث المعتزلة، إلا أن هذه الأعمال لم تأتِ بدون كلفة؛ فقد اتُّهم طه حسين مثل نصر أبو زيد بالردة في مصر، وتوفي علي دشتي في ظروف غامضة بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، واضطر فضل الرحمن إلى مغادرة باكستان في الستينيات. فعلى المسلمين الراغبين في مواجهة العقيدة السنية التقليدية أن يأخذوا حذرهم.

قال نصر أبو زيد عن العدوانية الإسلامية المتفشية تجاه القراءات المعاصرة للقرآن: «أرغب في أن أخرج القرآن من هذا السجن؛ حتى يُصبِح مؤثرًا ثانية في تشكيل روح ثقافتنا والفنون التي يخنقها مجتمعنا».

ورغم كثرة أعداء نصر أبو زيد في مصر، إلا أنه يحرز تقدمًا ملحوظًا في هذا الصدد؛ هنالك دلائل على أن أعماله تحظى بنوع من القبول في العالم العربي ويُقبل الكثيرون على قراءتها، ولو في صمت. يقول أبو زيد على سبيل المثال أن كتابه «مفهوم النص» (١٩٩٠م)، وهو الكتاب الذي تسبب في نفيه من مصر، طُبع ثمان مرات بشكل سري في القاهرة وبيروت.

ثمَّة باحث آخر معني بإعادة قراءة القرآن قراءة معاصرة، وتلقى أعماله رواجًا، إنه الأستاذ الجزائري بجامعة باريس محمد أركون. من بين ما قاله أركون في محاضراته عن القرآن (١٩٨٢م): «حان الوقت لأن يتقبل الإسلام -حاله حال جميع التقاليد الثقافية العظمى الأخرى- المخاطر المعاصرة للمعرفة العلمية»، ويرى أن قضية أصالة القرآن الإلهية يُمكن أن تؤدي إلى إعادة تنشيط للفكر الإسلامي، وتُدخله في الجدالات الكبرى لعصرنا الحالي، وأعرب أركون

عن أسفه لعدم إدراك الغالبية العظمى من المسلمين لوجود تصور آخر للقرآن ضمن تراثهم التاريخي، وأن إعادة النظر في قراءة التاريخ الإسلامي هي فرصة لتحدي الرؤية الإسلامية السائدة على يد أبناء الإسلام نفسه، بدلًا من الاضطرار على اعتماد مصادر خارجية «معادية». ويأمل أركون وأبو زيد وآخرون أن يؤدي هذا التحدي إلى نهضة إسلامية حقيقية.

ثمَّة فجوة واسعة بين هذه النظريات الأكاديمية والممارسات الإسلامية اليومية في جميع أنحاء العالم، وبطبيعة الحال، فإنَّ أغلبية المسلمين اليوم غير مستعدين للتشكيك في الفهم التقليدي للقرآن والتاريخ الإسلامي. ومع ذلك فقد أضحى الإسلام واحدًا من الديانات الكبرى في العالم، بسبب انفتاحه الجزئي على التغيير الاجتماعي والأفكار الجديدة (منذ قرون، عندما كانت أوروبا غارقة في العصور الإقطاعية المظلمة افتتح حكماء الحضارة الإسلامية عصرًا من الاكتشافات العلمية والفلسفية العظيمة، ولولا جهود المترجمين والفلاسفة المسلمين لظلت أفكار اليونان والرومانيين القدماء مجهولة في أوروبا، فلهم الفضل في اكتشافها وإحيائها من جديد). ويبين التاريخ الإسلامي أنَّ التصوّر السائد عن القرآن ليس المفهوم الوحيد على الإطلاق، ويظهر التاريخ الحديث للدراسات التوراتية أنّ الدراسات التاريخية النقدية لكتاب مقدس ليست كلها عدائية، وفضلًا عن ذلك يمكن الإفادة منها في إطار تحقيق النهضة الروحية والثقافية، كما يقول محمد أركون: يمكن لهم أن يزيلوا الغموض عن النص «القرآني»، ويعيدوا في نفس الوقت التأكيد على أهمية بديهياته الكبرى.

حتمًا ستظهر في العقود المقبلة قراءات وتفسيرات متنوعة للقرآن والتاريخ الإسلامي في ظلّ تلاشي الفوارق الثقافية المتوارثة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وفي ظلّ نمو سكان العالم الإسلامي، ومع استمرار إمعان النظر

والتدقيق في المصادر التاريخية، والتقاء الحركة النسوية بالقرآن، ومع تنوع هذه التفسيرات يبرز المزيد من المشاكسات؛ بل ربما تشتد وطأتها نظرًا للبيئة الإسلامية الحالية التي تتسم بالتنوع الاجتماعي والثقافي، ما بين البوسنة، وإيران، وماليزيا، ونيجيريا، والمملكة العربية السعودية، وجنوب أفريقيا، والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، وقد أصبح لزامًا أكثر من ذي قبل على كلّ راغب في فهم الشئون الدولية استيعاب حقيقة الحضارة الإسلامية بكلّ وجوهها، ولا شك أن أفضل ما نبدأ به هو دراسة القرآن، وهي دراسة يُتوقع ألا تقلّ سخونة وإثارة وأهمية عن دراسة الكتاب المقدس في هذا القرن.